# الإلهام والوحي

حين يفشل علماء الدين والمؤرخون في وضع بعض المفاهيم التراثية المهمة والأحداث التاريخية التي تشكل جزءاً من الإيمان في إطارها الزمني والمجتمعي السليم، يصبح من السهل خلط المقدس بالخرافة، والحقيقة بالأسطورة، والواقع بالخيال، والتفكير بالأحلام. وهذا من شأنه أن يقود الجماهير والكثير من المثقفين التقليديين إلى الوقوع في أخطاء كبيرة، تكون أحياناً كارثية بالنسبة للمجتمع والثقافة والمستقبل. وعلى سبيل المثال، أدى عدم التأكيد على أن حادثة الوحي تخص إنساناً واحداً فقط هو النبي محمد عليه السلام، وأنها لن تتكرر في المستقبل، إلى الخلط بين الوحي والإلهام. ولقد جاء الخلط بسبب سوء الفهم أحياناً، ونتيجة لسوء النوايا أحياناً أخرى، لكنه جعل عملية الخلط هذه تترك آثاراً سلبية كبيرة على حال الثقافة العربية، وعلى موقف العرب والمسلمين عامة من قضايا الحكم والسياسة والعلم والفكر والفلسفة.

إن نزول الوحي على النبي جعله يغدو، بين ليلة وضحاها، عالماً فذاً لا مثيل له في تاريخ البشرية، يعرف من أمور الحياة والدنيا والآخرة ما لا يعرفه غيره من الناس. ومع تواصل نزول الوحي وقيامه بتزويد الرسول بالمعلومات المطلوبة للتعامل مع مختلف القضايا المجتمعية، لم يعد الرسول بحاجة لدراسة كغيره من الناس. أما الإلهام فيعني استحواذ المُلهم على مصدر معلومات تتجاوز قدراته إمكانيات البشر، ما يجعله في منزلة رسول تأتيه الأفكار من الغيب. لذلك نلاحظ ان المهلم، شأنه شأن أي رسول، لا يشعر بحاجة لخدمات مستشارين وعلماء ومؤسسات علمية وبحثية. وفي ضوء هذا الفهم لقضية الالهام وعلاقتها بالوحي، أصبح بإمكان كل ضابط يقوم بانقلاب عسكري ناجح أن يصبح، بين ليلة وضحاها، "قائداً مُلهما" وزعيماً، كما وصفَ الإعلام المصري الرئيس أنور السادات، ووصف الإعلام الليبي العقيد معمر القذافي، ووصف الإعلام العراقي صدام حسين. وهذا من شأنه أن يجعل أي قائد سياسي، مهما كان جاهلاً في أمور الحياة والدنيا، حاكماً مُهلماً ورجلاً حكيماً عليماً لا يحتاج لمساعدة أو مشورة أو علم أو فكر من خارجه.

كل مفكر وشاعر وعالم ومخترع وفنان وروائي تأتيه بعض الأفكار الخلاقة أثناء نومه في الليل، أو أثناء قيامه بالسير في حديقة، أو التنصت لهمس الطبيعة، أو مشاهدة برنامج تلفزيوني، أو قراءة كتاب أو مقال. لكن هل هذا وحْياً يأتي من قبل قوى غيبية؟ إذا كان هذا وحياً فإن من حق كل مفكر وروائي وشاعر وفنان أن يدعي أنه على تواصل مع الخالق، وأن الخالق خصه بشيء لم يخص به غيره من الناس. لكن ما يحدث في الحقيقة، وكما يشير العلم الحديث، أن الكثير من الأفكار التي تأتي على هذه الشاكلة تكون مُخزَّنة في جينات الناس الذين تأتيهم... جينات يكونوا قد ورثوها عن آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم. إذ يكون أصحاب

هذه الجينات قد مروا بتجارب حياتية أكسبتهم خبرات أورثوها لأولادهم وأحفادهم من بعدهم. فالإنسان لا يرث جيناته عن والديه فقط، بل يرث أحياناً الكثير منها عن أجداد عاشوا قبل عشرات وربما مئات السنين. وهذا يعني أن الإلهام في هذه الحالة هو حصيلة تجارب حياتية مر بها الشخص المعني بطريقة غير مباشرة من خلال عشرات الأجداد وتراكمت في عقله الباطن، وصحت من غفوتها نتيجة لحادث ذَكَّرها بظروف التجربة. وعلى سبيل المثال، قال لي أستاذ جامعي معروف عاش في أمريكا إنه لا يستطيع أن يكتب مقالا إلا بعد أن يقرأ شيئاً أو يستمع لرأي شخص آخر، إذ أن القراءة الفعلية أو الشفوية تُذكره بفكرة ذات علاقة بما قرأ أو سمع تكون مخزنة في عقله الباطن، تمكنه من كتابة مقال جديد.

خَلَّف والدي عبد العزيز ربيع ووالدتي صبحة بيرم أربعة أولاد وثلاثة بنات ما يزالوا جميعاً على قيد الحياة. ومع أن جميع الأولاد والبنات تربوا في نفس البيت، وعاشوا نفس الظروف الحياتية حتى النضوج والخروج من البيت، إلا أن شخصيات الأولاد الأربعة تختلف عن بعضها البعض اختلافاً كبيراً، إذ ليس هناك تشابه في الفكر أو الاهتمامات أو المواقف أو حتى الميول. وهذا هو الحال بالنسبة للبنات. ومع أن علماء النفس والاجتماع يشيروا إلى أن الوراثة وطريقة التربية والبيئة تُسهم بدرجات متفاوتة في تشكيل شخصيات الناس، إلا أن ما حدث في عائلتنا يخالف هذه المقولات. إذ إن جميع الأولاد وجميع البنات جاؤوا من نفس الأب ونفس الأم، وأن البيئة التي عاشوا فيها والطريقة التي تربوا عليها والقيم والعادات والتقاليد التي نشأوا عليها كانت واحدة، إلا أن الشخصيات جاءت مختلفة كل الاختلاف، ما يشير إلى أن كل واحد منا ورث نوعاً مختلفاً من الجينات ميزته عن أخيه وأخته.

كان والدي، حين تواجهه قضية مُحيّرة، أو يكون عليه القيام بمهمة صعبة يعمل استخارة... كان يتوضأ قبل النوم، ويصلي ركعتين لوجه الله، ويدعو الله أن يرشده إلى القرار السليم. تعني الاستخارة التوجه إلى الله والطلب منه أن يُلهم الشخص المُستخير باتخاذ القرار الصائب، وهو قرار يأتي عادة في صورة إيحاء عبر حلم، يُفسره الشخص المعني كما يفهمه. لكن هل من المعقول أن يقوم الله بإلهام كل من يطلب مساعدة متى طلبها؟ وهل تعني الاستخارة أن بإمكان أي مؤمن أن يطلب من الله طلباً وأن الله يلبيه له في الحال؟ ألا يعني هذا أن المُستخير ينظر الى الله، من دون وعي، كمُستشار يعمل لديه مقابل ركعتين يؤديها له بين الحين والآخر؟ ألا تلغي الاستخارة الحاجة للتفكير والتخطيط وإعمال العقل؟ وما دام كل حاكم عربي "ملهم"، وكل واحد منهم "مؤمن"، فمعنى ذلك أن كل حاكم عربي منزه عن الخطأ، وبالتالي لا يحتاج لعلم أو دراسة في جامعة أو مدرسة أو مشورة، كما أنه لا يجوز أن يحاسب عما يفعل.